

التخييل التاريخي في رواية شعلة المائدة لمحمد مفلح

Historical Imagination in the Novel The Flame of Maidah by Muhammad Muflah.

* ساجي عبد الحكيم

جامعة عبد الحميد بن باديس _مستغانم (الجزائر) ، sadjihakim10@gmail.com

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر من العهد التركي حتى نهاية القرن العشرين

د. زيتوني كريمة

جامعة عبد الحميد بن باديس _مستغانم (الجزائر) ، karima.zitouni@univ-mosta.dz

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر من العهد التركي حتى نهاية القرن العشرين

تاريخ النشر: 2024/12/27

تاريخ القبول: 2024/11/22

تاريخ الاستلام: 2023/12/28

ملخص: تهدف هذه الورقة البحثية الموسومة بـ: "التخييل التاريخي في رواية شعلة المائدة لمحمد مفلح" إلى تسليط الضوء على ظاهرة التخييل التاريخي بعدها ظاهرة فنية إبداعية عرفت الكتابة الروائية المعاصرة التي توسلت المادة التاريخية لتأنيث صرحها، واستثمرتها لنباش المهملش من التاريخ. حاولنا سبر أغوار هذا الموضوع في رواية شعلة المائدة التي اشتغل فيها الروائي على تاريخ الحكم العثماني في الجزائر وما جرى في عملية فتح وهران من ملابسات. ومن النتائج التي توصلنا إليها هي أن: تخييل هذا الحدث عبر عن معاناة الجزائريين ودور الطلبة، وشيوخهم في ردّ الغزو الصليبي .

كلمات مفتاحية: الرواية؛ التاريخي؛ التخييل؛ الشخصية؛ الحدث.

Abstract: This research paper, titled "Historical Imagination in the Novel The of the Maidah flame by Muhammad Muflah," aims to shed light on the phenomenon of historical imagination followed by a creative artistic phenomenon known in contemporary novel writing, which begged historical material to furnish its edifice and exploited it to exhume the marginalized from history. We tried to explore the depths of this topic in the novel The Flam of the Maidah, in which the novelist worked on history of the Ottoman rule in Algeria and the circumstances that happened there and in the conquest of Oran Among the results we reached: The imagining of this event expressed the suffering of Algerians and the role of the students and their chekhs in repelling the Crusader invasion.

Keywords: the novel; historical; Imaginative; Personal; the event.

* المؤلف المرسل : ط. د ساجي عبد الحكيم ، الإيميل : sadjihakim10@gmail.com

1. مقدمة:

يعد التخييل التاريخي من الظواهر الإبداعية البارزة التي عرفت الكتابة الروائية في العصر الحديث؛ نتيجة تفاعل ثنائية الرواية والتاريخ؛ حيث سعى الروائي من خلاله إلى تقديم قراءة فنية للتاريخ تقوم في جوهرها على نبش الماضي، وإمالة اللثام عن المهملش والمنسي منه، لقول كلمته وبطريقته الخاصة، معبراً عنها في تخييل أحداثه ووقائعه، وهو ما نزوم الكشف عنه في رواية "شعلة المائدة" لمحمد مفلح التي وقف فيها على أحداث فتح وهران في عهد الباي محمد الكبير، وطرح فيها بعض الملابسات الغامضة التي جرت على أرض الواقع وهمشها التاريخ: كنتعاس بعض القادة الأتراك في عملية الفتح، وتسليطهم على القبائل الرعية وكذا صراعهم على المناصب الحساسة في الجزائر، وقائع أعاد الروائي قراءتها عبر تخييل بعض الأحداث، وبعث بعض الشخصيات بأقوالها وأفعالها ومواقفها وعاداتها وتقاليدها؛ لتعبر عن روح العصر الذي عاشت فيه حتى يستثمرها في تأنيث نصه الروائي المبطن بالأسرار والتناقضات.

وتأسيساً على هذا الطرح جاءت فكرتنا في البحث مصاغة في العنوان الآتي: "التخييل التاريخي في رواية شعلة المائدة لمحمد مفلح"، والقائمة على التساؤلات الآتية: ما مدى قدرة الروائي على تخييل أحداث الفترة التاريخية المصورة والمسرودة في رواية شعلة المائدة؟ وما الدلالات التي قدمها عبر هذا التخييل؟

وهي إشكالية نسعى لمعالجتها من خلال الوقوف على مصطلح "التخييل التاريخي" وعلاقته بالرواية ثم البحث عن استراتيجية الروائي في تخييل أحداث وشخصيات هذا التاريخ، وطريقة التعاطي معها؛ مستأنسين في ذلك بآراء النقاد والباحثين في هذا المجال، وباعتماد المقاربة التاريخية في تتبع الحقائق التاريخية التي استند عليها الروائي مع الاستعانة بالمنهج الوصفي التحليلي في عرض بعض الوقائع وتحليلها.

2. التخييل التاريخي:

الرواية والتاريخ صنوان يشتركان في الخاصية السردية، يتجه المؤرخ لنقل الخبر على نحو موضوعي ساعياً للبحث عن الحقيقة يقدمها للقارئ، والذي يفترض أن يكون بعيداً زمنياً عن مجريات تلك الأحداث، في حين يعود الروائي لإعادة قراءة أحداث نفس المرحلة التاريخية وفق منظوره وعبر تقنية الهدم والبناء ليقدمها للقارئ على شكل خطاب تخيلي لا يحيل إلى مرجع، ولا يمثله فتكون الموضوعية والذاتية ههنا المعيار بين التاريخي والتخيلي، والحقيقة التي يتوصل إليها المؤرخ قائمة على دراسة الوثائق وعلى ضوء الموقف النقدي منها؛ غير أنها ليست حقيقة أخيرة ونهائية؛ إنها تشكل تفسيراً مفتوحاً أمام موقف نقدي آخر، وفي هذا الصدد يجري ريكور مقارنة بين الحكم الذي يصدره المؤرخ حين يصدر عمله التاريخي تحت صورة كتاب موضوع أمام متلق هو قارئه وبين الحكم القضائي؛ في الحالتين كان هناك شهود وكانت هناك وجهات نظر متباينة، وكان الأمر معروضاً أمام الجمهور ففي حين أن القاضي يصدر حكماً نهائياً ويقفل الملف ولا تعود هناك من مراجعة فإن المؤرخ يصدر حكمه... الذي يصنّفه ويقدمه لمن شاء من معاصريه كي يقرأه؛ والحكم الذي توصل إليه قابل للنقاش، ومفتوح على آفاق أخرى¹، وبالتالي تبقى حقيقة التاريخ نسبية لا وجود لإمكانية التحقق من مصداقيتها، ومن الوهم بالحقيقة التاريخية يأتي صدى الروائي ليسلط الضوء على الروايات المعتمدة، والأحداث المقبورة في هذا التاريخ.

فالتخييل التاريخي وفق المنظور المطروح آنفاً لا يتأسس على مقدار التخيلات ولا مطابقة الوقائع التاريخية؛ بل في الطاقة المذهلة على إيهام القراء، والقدرة على توليد المعاني من تجاويف سكوت وسجلات الأخبار، وصمتها عن ذكر الوقائع ويكون نمط إنتاج الحقيقة وفق هذا المعطى مرهون بمشكلة الخبر روائياً، والقدرة على تحويله إلى شكل من أشكال معارضة الخبر أدبياً؛ عبر رحلة إلى الماضي تروم التبصر بالحاضر، أو بالتجاوز معه لاستدراك ما أهمله،² والحقيقة أن مسألة التخييل التاريخي طرحت كبديل للرواية التاريخية؛ لتعبر عن كتابة لا تحمل وقائع التاريخ، ولا تعرفها إنما تبحث في طياتها عن العبر المتناظرة بين الماضي والحاضر، وعن التمثيلات الرمزية فيما بينهما؛ فضلاً عن استيحاء التأمّلات والمصائر والتوترات والاختيارات القيمية، والتطلعات الكبرى؛ فتجعل منها أطراً ناظمة لأحداثها ودلالاتها.

فكل تلك المسارات الكبرى التي يفتحها التخييل التاريخي تنقل الكتابة السردية من موقع جرى تقييد حدوده النوعية إلى تخوم رحبة للكتابة المفتوحة على الماضي والحاضر³؛ وهي بهذا الطرح تعبر عن نشاط، ووعي المبدع، ورؤيته في تفسير الوقائع والأحداث؛ إذ تؤدي فيه عملية الحبك الدور الأساسي في التوفيق بين الأحداث، وسياقاتها المختلفة فتقوم بالتوسط بين طريقتين متنازعين هما: الانسجام من طرف، والتنافر من طرف آخر... فينتهي الأمر بنسيج من المتغيرات وتؤدي الحبكة دور الوساطة السردية بين تعدد لأحداث والوحدات الزمنية للقصص، وبين المكونات المتباينة لسير الأحداث، وتسلسل القصة، وترابطها⁴.

وهذه العملية تحتاج في جوهرها الخبرة وتراكم في المبدع ومدى قدرته على بلورة الأفكار وصياغة الأحداث والربط بينهما لإنتاج عالم جديد يتماهى فيه المعرفي مع الجمالي في بوتقة واحدة؛ يتجاوز قيود التاريخ كي يعبر عن حياة الإنسان بحرية تامة. ففي تخوم التقاطع بين المرجعي والتخيلي تنشأ منطقة حرة يتنازعها الطرفان، ويكون التاريخ فيها وسيلة لمعالجة بعض القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية، أو تاريخية ولا يلتزم فيها المبدع بالحقائق التاريخية؛ بل يتخيل أن شخصه وأبطاله يعيشون في عمق التاريخ دون أن يكون لهم وجود فعلي في التاريخ، وقد يستدعي شخصيات مشهورة أو مغمورة في التاريخ ويعمل على بعثها في الواقع بحركاتها وأفعالها وحواراتها لتكون مفسرة لموقفه من قضية ما؛ فتكون الشخصية هنا مجرد قناع يتخفى المبدع خلفها ليث قناعاته الخاصة، ويكون الحدث التاريخي هو محور الرواية، فينبغي الكاتب لصنع حدث مماثل في زمانه باعتبار أن الحاضر من إفرازات الماضي، كما قد يكتفي المبدع بالجو التاريخي فيشعر القارئ بأن موضوع الرواية يجري في مرحلة تاريخية⁵ ويكون استدعاء الشخصية أو الحدث كرموز تؤشر إلى مرحلة تاريخية معينة.

كما أن استدعاء التاريخ والاشتغال على مادته؛ كشف عن التباين الحاصل في الرؤى والتصورات بين النماذج التقليدية التي سعى أصحابها لأهداف تربوية، وهو ما عبر عنه جورج زيدان في سياق حديثه عن الرواية التاريخية، وبرر أن الهدف من وراء قصصه التاريخية هو تعليم التاريخ من خلال الأسلوب الممتع والجذاب، حتى يتغلب على جفاف المادة وجهامة المعلومات التي يقدمها للقراء لغرض تعليمهم بعض المهارات السلوكية، وتعريفهم ببعض الشخصيات التاريخية التي كان لها أثر في مسيرة الأمة وحركتها،⁶ ويمكن تقسيم الرواية التاريخية وفق هذا المضمون إلى: رواية المعلومات التاريخية، ورواية تعليم الصياغة والأسلوب، ورواية الترجمة الأدبية؛ ولعل هذا الأمر يبرز دور النماذج الروائية الحديثة والمعاصرة التي استثمرت المادة التاريخية لإثارة إشكال التاريخ؛ والتي تحاول الإجابة عن بعض التساؤلات وتعالج بعض القضايا.

ينطلق المبدع من أحداث الماضي، فيسرد أحداثا وقعت أو محتملة الوقوع بناء على ما وقع في مرحلة من مراحل التاريخ؛ ليقدّم رؤية نافذة مفككة لروايته الرسمية فتتجلى الكتابة الاسترجاعية لتلك الأحداث الماضية بثوب جديد يساير لحظة الكتابة، ويتمشى مع السياقات الثقافية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية التي أنتجت الوقائع السابقة.⁷ فالرواية تبحث عن الشيء الجوهرى والمتوارى في التاريخ؛ فتستثيره وتميط اللثام عن المهمش، والمنسي منه الذي غفلت أو تغافلت عنه كتب التاريخ وتنبأ بالمتوقع الذي تحجبه دهاليز ودروب الأيام من أحوال وأهوال وصراعات والذي يتطلب وعي وتراكم في معرفي من المبدع؛ ليتكيف مع المستجدات _ في حال التنبؤ الصائب _ ومعالجتها تفاديا للوقوع في المزالق؛ وهذا كله من دون خروج الرواية عن قلبها الفني.

فالتخييل التاريخي هو تنافذ وتماهي المرجعية التاريخية مع المرجعية التخيلية لإنتاج نص هجين يتماهى فيه المعرفي والجمالي؛ وهو نتاج تجارب المبدع ورؤيته الخاصة لهذا العالم الذي يصل إلى القارئ مثخن بدلالات ورموز، ووقائع تاريخية؛ ويحتاج منه معرفة ودراية وإحاطة ببعض الجوانب؛ حتى يتمكن من فك شفرات هذا النص، من بينها البحث عن العلاقة التي تربط السياق بحركة النص الإبداعي لتأويلها ومن ثم الوصول للفهم الشامل لمسوغات العودة لهذا التاريخ، والمحفزات الإبداعية فيه في ظل إرغام الواقع. فالتخييل في فن الرواية يتم وفق قناعة المؤلف، ورؤيته الكونية؛ وأما تركيب الوقائع وصناعة التاريخ؛ فيتطلب تحديد القيم الراهنة،⁸ وهو بحاجة لقارئ منتج للدلالة.

3. استراتيجية التخييل التاريخي في رواية شعلة المائدة:

1.3 _ بناء الحدث التاريخي في الرواية:

الحدث التاريخي الذي رسمه الروائي في هذه الرواية؛ هو عملية فتح وهران في عهد الباي محمد الكبير؛ حيث استخدم أهم تقنية في السرد التاريخي والتي تقوم على تفكيك المادة التاريخية وإعادة بنائها لإنتاج عالم مغاير يجمع بين الحقيقة والخيال؛ حيث افتتح الروائي عمله السردى عبر عرض رؤيا الشيخ جلّول (شيخ زاوية مينا) الذي "رأى نفسه يمشي حافي القدمين على الثلوج، ثم شاهد شعلة عجيبة في قمة جبل المائدة وصلت حرارتها إلى الثلوج المتراكمة على مدينة عظيمة فأذابتها حتى ظهرت بنايات ضخمة مصنوعة من ذهب،"⁹ ولهذا الافتتاح دلالة على عملية تخييل الحدث.

فهذه الرؤيا تشير للحياة الروحية لهذا الشيخ، وجانبها الخفي؛ وهي تقنية سردية أراد منها الروائي الإبلاغ لتعميق الفكرة وخلق جو نفسي يتلاءم وطبيعة العمل الفني وتأويله،¹⁰ فالروائي يؤشّر بهذه الرؤيا لحدث جبل المائدة، وعملية فتح وهران في عهد الباي محمد الكبير وقد تعبّر الثلوج المتراكمة عن الجهل والتخلف الذي أصاب مدينة وهران بسبب الغزو الإسباني الذي نشر ثقافته؛ كما قد تعبّر الشعلة العجيبة في قمة هذا الجبل عن الثورة والمقاومة من أجل استرجاع السيادة، فحاول الروائي عبرها إعادة قراءة الحادثة في قالب فني جمالي.

مهّد الروائي لبلوغ الحدث الرئيسي (عملية الفتح وهران) بعرض بعض الأحداث الجزئية، واستخدم عادات وتقاليد تعبّر عن روح العصر؛ ويتضح ذلك من خلال وقوفه على تاريخ بعض المناطق العريقة كالجزائر العاصمة وهران ومستغانم، وغيزان (مازونة، قلعة بني راشد، زمورة) ومعسكر وأثار عبرها الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية، والدينية التي عرفتها الجزائر في عهد الحكم العثماني، وسبقت عملية فتح وهران؛ ليكشف عن الزوايا المعتمدة والمنسية في هذا التاريخ، ودون أن يغفل عن الجانب الفني والجمالي للعمل؛ عبر خلق علاقة اتّسمت بالقلق والتوتر والدهشة.

_ **وقائع الحراش:** بعد أن أسّس الروائي لعمله المتخييل عبر استخدام تقنية الحلم (رؤيا الشيخ جلّول) التي كسر عبرها خطيّة الزمن؛ أعاد بناء واقعة الحراش واصطنع مشهدا لهذا الحدث التاريخي تجلّت معالمه منذ وصول رُسل الباي إبراهيم إلى زاوية مازونة، و"قصّدا الشيخ أبا طالب الذي رفع فيهما عينيه الذكيتين ثم وضع الكتاب الذي كان يطالعه في صندوق خشبي،"¹¹ يصف الروائي جو اللقاء، وما دار بينهما من حوار وكلمات محفّزة على الجهاد وُجّهت لطلبة الزوايا، وشيوخهم تدعوهم للمشاركة في ردّ العدوان الصليبي؛ فأخبروا الشيخ أبا طالب بثقة "لّباي وعلمه بحماس سكان البايك للجهاد،"¹² ثمّ وصف التحضيرات لهذا الحدث التاريخي من خلاله موكب الخليفة، وتحركه للعاصمة بعد تجنيد طلبة الزوايا، وشيوخهم وبعض رجال القبائل للمشاركة في هذه الحرب.

ومن المعالم البارزة التي احتفظ بها الروائي في تخييل الواقعة هي: تاريخ ومكان وقوع الحادثة، ونتائجها، وهو ما عبر عنه السارد في قوله: "وفي يوم الجمعة 30 جوان 1775م وصل الأسطول الإسباني بالقرب من الضفة الشرقية لوادي الحراش؛ وقيل أنه كان يتكون من العديد من السفن الحربية،"¹³ ثمّ قدم نتائج المعركة التي قال فيها: "انهزم العدو الإسباني مخلّفا 8000 قتيل وأكثر من 3000 جريح واستشهد 300 مجاهد جزائري، وكان من بينهم الشيخ المجاهري، والمؤذن علي الزروالي، والطالب صادق الراشدي، وعواد الفليتي، وأحمد المعسكري وقد أصيب محمد الشلفي برصاصة في ذراعه؛ فعالجه طبيب البايك في حينها،"¹⁴ ولم يذكر أي ضحية في جيش البايك.

وقد عبر المؤرخون عن هذا الحدث بقولهم: "أتوها سنة تسع وثمانين ومائه وألف (1189هـ)، وخرجوا إلى البر قرب وادي الحراش، وابتنوا مترسا طوله ألف خطوة، وأنزلوا إليه مدافعهم، وزادهم وخرجوا للقتال يوم السبت العاشر من جمادي الأولى وحملوا كالجراد المنتشر حتى وصلوا دروب الأجنة فردّهم المسلمون أقبح الرد، وأخرجوهم إلى متارسهم، وقتلوا منهم نحو ثمانية آلاف أو أكثر، وجرحوا أكثر من ثلاثة آلاف؛ لم يعيش منهم إلا النادر،¹⁵ إلا أنّ الروائي وسع دائرة هذا الحدث التاريخي، وأطلق العنان لمخيلته ليضفي عليه طابع في جمالي، ويتطلع لرؤية خاصة تكشف عن سر هذا الانتصار.

وقد استخدم الروائي تقنية من تقنيات السرد ما بعد الحداثي، التي تعتمد على السخرية المنتجة وليست المدمرة أي: تعيد قراءة الماضي بروح جديدة تنصب في الحاضر؛¹⁶ وهذا من خلال عرض خطة باي قسنطينة الذي استخدم الإبل كحاجز لصدّ ضربات العدو، والتي عبرت عن ضعف حيلة هذا الباي؛ إلا أنّ حماس المجندين في هذه المعركة من طلبة الزوايا وشيوخهم وتواجدهم في الصفوف الأمامية حجب ضعف التخطيط واهتم بالنتيجة؛ فالروائي أماط اللثام عن الجانب الخفي في هذه الواقعة، وهم الضحايا (وكلهم أبناء الجزائر)، وأحالتها للقارئ بطريقة ساخرة، وحين يبحث القارئ عن المأذونية في تأمل المسرود ودلالاته، وما فيها من حقيقة يشجب نظره الروائي كونه يميل عن الجادة، وينحرف برؤيته للحدث والتطلع إلى الهوية تاريخيا،¹⁷؛ وعبر هذه المراوغة السردية يتمكن الروائي من بسط فكرة المهمل والمقبور من التاريخ؛ وهو ما نجده في حوار بعض الشخصيات منها ما قاله محمد الشلفي: "العثمانيون وقفوا معنا ضدّ الحملات الصليبية، ونحن نحترمهم لهذا السبب... ولكن ألا ترى أنّ الأتراك احتكروا لأنفسهم كلّ مناصب الحكم وحرّموا منها آباءنا؟"¹⁸ وواصل حديثه عن تقاعس البعض منهم في مهمة صدّ العدوان؛ فإن كانت نتائج هذه الحادثة التاريخية تحمل صورة الانتصار في ظاهرها فباطنها يثقل بالظلم والظلمة والاستغلال لهذا الشعب؛ فخلّف نفوسا مفقودة وممتلكات منهوبة وضرائب مفروضة، وقوانين تعسفية لاح صداها في الأفق لا تبشر بالخير؛ إذ لم يسلم منها لا أعيان القبائل ولا العلماء، ولا المشايخ ووصلت لحدّ القتل بحجة التحريض؛ ولعلّ هذا ماسكت عنه التاريخ، وأثارت إشكاله الرواية لتزيل العتمة والضبابية التي طالت بعض الحقائق.

فدسائس التاريخ تشير إلى أنّ بعض القبائل ذهبوا بأنفسهم للباشا بالجزائر؛ لنقل معاناتهم ولما علم الباي محمد عثمان بأمرهم؛ كتب فيهم كتابا للباشا يخبره بأنهم خرجوا عن الطاعة، وأنهم عصوا عليه الرعية، وقالوا للناس لا تعطوا المجابة؛ فأمره الباشا بأن يحكم فيهم بما شاء وإن لم ينفعه فيهم إلّا القليل أن يقتلهم عن آخرهم؛ لأنّ المفسد يجب قتله، ولما أدرّكهم ما صدر من الباشا؛ تخفوا عن العيون والباي يحتال عليهم حتّى وصلهم وقتل أعيانهم،¹⁹ وهكذا حاول الروائي أن يبلور الحدث وينبش في المسكوت عنه؛ ليقدم رؤية فنية تنفس من حقائق التاريخ.

— عملية فتح وهران: يختزل الروائي الأحداث ويقف على حدث تولي محمد الكبير بايلك الغرب، وفرحة بعض القبائل بهذا الحدث، الذي علقت عليه القبائل الرعية آمالا كبيرة؛ ليردّ عنهم ما هم فيه من مظالم كتخفيف الضرائب التي أثقلت كاهل السكان، والاهتمام بالعلم والعلماء والطلبة وشيوخ الزوايا الذين استبدّهم من سبقوه في الحكم. يصور الروائي مجريات الأحداث وما حدث في بايلك الغرب حتى تمكن 'الأكحل' - كما نعتته شخصيات الرواية - من تولي هذا المنصب، فنقل لنا عبر حوار الشخصيات كيف تحقق الحلم الذي انتظره السكان، فعرض حال داي الجزائر وتخوفه من ردود فعل القبائل العتيقة، وموت الباي خليل الذي اشتهر بظلم الشيوخ، والقسوة على الصالحين، وقتل العديد من المشايخ الأفاضل، واشترى المنصب بعد وفاة الباي إبراهيم، وهو من أعاق الأكحل من تولي هذا المنصب؛ "أما اليوم فلم يجد الباشا من هو أجدر من الأكحل لتولي منصب الباي؛²⁰ والروائي بهذه الوقائع يعبر عن نظرتة وتصوراتة لأحداث الفتح والعراقل التي أجلتة، وفي الوقت نفسه قد يقدم رسالة

ضمنية للقارئ فحواها أنّ تحقيق التّصر لا يكون إلا إذا كان الرجل المناسب في المكان المناسب، والذي اشترى المنصب بالمال من غير الممكن أن يخدم البلاد.

ومن هنا صاغ الروائي الحدث بطريقة تخيلية من دون الابتعاد أكثر عن الحقائق؛ فقدم لنا خطة محمد الكبير في تحقيق النصر والتي أقدم فيها على جمع شمل القبائل وتطلع إلى انشغالهم، وعمل على تجنيد الطلبة مع شيوخ الزوايا في هذه الحرب، وإحياء فكرة الرباط الذي اقتصره في فترة الحرب على "رباط جبل المائدة"، ولما ارتفع عدد الطلبة عمل على تنظيمه وعين له رئيساً، وقائداً على كلّ مجموعة وزودهم بالعدة، والعتاد ودرهمهم على القتال وأصبح هذا الباي يتابع شخصياً شؤون الرباط فكان لا يمرّ يوماً إلا ويبحث برسالة يستفسر فيها عن الرباط، وكان يرسل كمية هامة من السيوف، والبنادق والبارود ليوزعها على المراتبين، ويدرهم عليها،²¹ فالروائي عمد لرسم مشهد التحضير وذكر بعض التفاصيل كوصفه "لجبل المائدة" وما يجري فيه من استعداد، وحماس الطلبة المراتبين لينقل الحدث ويخرجه من الجو التاريخي إلى الجو التخيلي ويحيل عبر هذا التخييل لحنكة الباي، وخبرته في القتال ورغبته في تحقيق آمال الرعية وتحرير أرضهم الطاهرة من الغزو الإسباني.

وفي هذا السياق يقدم السارد نجاح خطة الباي محمد الكبير ويكشف عبرها هاجس الخوف والقلق الذي انتاب آغا الجزائر والذي قال عنه الخليفة: "إنّ آغا الجزائر متخوّف جدّاً من انتصارنا في هذه الحرب، ولهذا نصح مولانا الباشا بالتفاوض والصلح الذي يرغب فيه الإسباني،"²² فأمر الباشا بتوقيف القتال حتى يستفسر عن مقاصدهم؛ لكن بعد رفض الإسباني الامتثال لشروط الصلح أمر بمواصلة الحرب "ليبدأ المحجوم من جديد على الأبراج؛ وأرسل المجاهدون عدة قذائف على العدو وفجأة ظهرت السحب الكثيفة التي غطت سماء المدينة"²³ وهكذا تعرض الإسباني لخسائر كبيرة، وطلب ملك إسبانيا الصلح مرة ثانية، ولكن داي الجزائر رفض طلبه وأجبرهم على الاستسلام، والخروج منها "ففي يوم التاسع من شهر ديسمبر 1791م، تمّ الاتفاق الذي نصّ على انسحاب إسبانيا من وهران، والمرسى الكبير دون قيد أو شرط."²⁴ وقد أشارت بعض الكتب التاريخية لهزيمة الجيش الإسباني و"أنه كان كثير من المعترضين للاستسلام يماطلون وأنذرهم الملك الإسباني بأنهم إن تمادوا في تلك المماطلة، وهاجمهم المسلمون فإنّه لن يدافع عنهم،"²⁵ ممّا عجّل برحيلهم.

2.3 _ بعث الشخصية التاريخية في الرواية:

بعث الروائي شخصيات تاريخية مشهورة في عهد الحكم العثماني، وصبغها بصبغة جمالية حين أعطاهم الكلمة والفعل والحركة وجعلها ملباساً تحمل عادات وتقاليد ذاك العصر واصطنع شخصيات أخرى من مخيلته وألبسها لباس الحقيقة؛ وصلت لحدّ الالتباس مع الشخصية الحقيقية _ البعيدة زمنياً وبخاصة المهمّشة منها _ وجعلها تتحرك وتعمل مع نظيرتها المثبتة تاريخياً؛ لتكشف عن الزوايا المعتمدة من هذا التاريخ، كتبرير بعض المواقف، والأفعال والتحركات التي تقوم بها الشخصية التاريخية التي تبدو أنّها خاضعة في مجملها لإيديولوجية المبدع ورؤيته الخاصة لتشكيل عالمه الجميل المتخيل.

كما حرص الروائي على نقل خصوصية تلك المرحلة التاريخية، والتي جاءت مشحونة بجو من الصراعات، وحملت عادات وتقاليد ومواقف وانشغالات السكّان؛ ليثير عبرها تساؤلات اختمرت في ذاكرته، وأثارت ملابسات وتجاوزات شهدتها الجزائر في عملية فتح وهران والتي أشار بها إلى نقطة انعطاف عرفت فترة حكم الأتراك وانتفاضة القبائل ضدها، وكيف حصل هذا الفتح المبين، الذي استرجعت فيه مدينة وهران من أيادي الجيش الإسباني، فوقف على شخصيات عاشت الأحداث وأسهمت في صنعها وطعمها بعقب الخيال؛ ليشكّل إلى جانبها عناصر أخرى قالب في جمالي؛ ومن بين الشخصيات التاريخية نجد:

ـ **الباي محمد الكبير**: وهو شخصية تاريخية معروفة في تاريخ الجزائر عاشت إبان فترة الحكم العثماني وتمّ على يدها عملية فتح وهران سنة 1246م²⁶؛ استحضرها الكاتب ليرز مواقفها ودورها الفعّال في هذا الفتح، والذي استهله بتهذئة الوضع السائد وفك الصراع، وتوحيد الصفوف لمواجهة الغزو الصليبي، ويرر عبرها التصرفات والضغوطات التي كانت تمارسها السلطة الحاكمة على القبائل الرعية، فصور لنا الروائي شخصية هذا البطل وفرحة قبائل بايلك الغرب بحصوله على هذا المنصب حتى ينقذهم من الكيد والظلم، وهو ما نقله الروائي على لسان بعض الشخصيات الخيالية لبورة رؤيته الخاصة؛ وذلك من خلال الحوار الذي جرى بين الشخصيات الثلاث "الحاج يحي والشيخ الطاهر، والشيخ المدني" وحديثهم عن الظروف التي وقفت في وجه الخليفة الأكحل، وحالت دون توليه بايلك الغرب من خلال قولهم: ما سمعناه أقلقنا كثيرا؛ لقد اشترى خليل التركي منصب الباي وهو غير قادر على تسيير شؤون البايك، ثم تتدخل شخصية حسين الغماز بلهجة العارف بخبايا الحكم ونصحهم بالصبر مردفا الأكحل سيتولى حكم بايلك الغرب، وستنتهي كلّ المظالم،²⁷ ليرسم لنا الروائي شخصية الباي عبر ما تقدمه الشخصيات من أوصاف ثم أضفى عليها طابعه التخيلي فبعثها من جديد لتعيش وسط عالمه السحري؛ إذ نجدها حاضرة بأقوالها وأفعالها ومواقفها متجاوبة مع مختلف الشخصيات التي عبر عنها السارد في قوله: "ترجل الخليفة، وترك فرسه للسائس ثمّ قال للمجتمعين حوله: لقد شهد والد هذا الشيخ الطيب عملية تحرير وهران، وعمره لا يتجاوز العشرين، ثمّ احتضن الشيخ الطاهر الذي اقترب منه بخطى متثاقلة."²⁸

فالسارد في هذا التقديم يؤسس لطيبة وتواضع الباي ومعرفته بتاريخ القبائل ورجالها، ويشيد بحنكته السياسية في كسب موّدة ومحبة سكان البايك بعد انتفاضهم ورفضهم للحكم الجائر. فبعد أن اطلع على شؤون الرعية، وانشغالاتهم خاطب "الآغا بلكابوس" الذي يمثّل نموذج للظلم واستغلال المنصب للتسلط على الرعية وأمره بعدم الاقتراب من زاوية الشيخ جلّول، ثمّ توعد بمعاقبة كلّ من يسيء للزوايا، ومشايخها؛ ليفتح بعدها قضية الجهاد، وفتح وهران الذي قال عنه أنّه لا يكون إلا إذا قاده العلماء، وشيوخ الزوايا كما وعد القبائل المتضرّرة من الجفاف بإعفائهم من بعض الأعباء،²⁹ ليردّ الاعتبار للأهالي بهذا اللقاء الذي أثّج صدورهم، وبدأت أحلام تحرير وهران تلوح في الأفق، وتعالّت التكبيرات في المنطقة.

ولقد أدرك الباي منذ توليه الحكم؛ بأنّ أمل تحرير وهران لا يكون إلا باتحاد قوى الأتراك مع الجزائريين، وهكذا يعمل الروائي على توسيع دائرة التخيل في هذه الشخصية بتفعيلها مع الشخصية المصطنعة وخلق حوار بينهما فإذا كان القارئ يؤمن بإمكانية وجود حوار بين شخصيات عاشت في الفترة نفسها؛ وإنّ تعمّد الكاتب إغلاق باب العودة لهذا التاريخ، وإمكانية وجود هذا الحوار؛ فإنّ الحوار مع شخصيات مفترضة اصطنعها الروائي من مخيلته يزرع الشك، ويزعزع يقين القارئ، ويجفّزه على البحث عن الجوانب الخفية التي يرمي الروائي إلى إبرازها عبر إقامته لهذه العلاقة غير المتوقعة، فنجد صورة هذه العلاقة مبثوثة في ثنايا النصّ مثل: إشرافه على تعليم الطلبة المرابطين في جبل المائدة، وحديثه مع شخصية راشد الشخصية الخيالية، حين بسط الباي يده اليمنى، وقال للطلبة بصوت قوي لا تقلقوا سأزودكم بالمدافع الحديثة، وأشار لراشد، وخاطبه متى أصبحت مدفعيا،³⁰ فعلاقة التفاعل هذه تشي بمسح الحدود بين ما هو تاريخي وما هو تخيلي.

ـ **الشيخ التواتي**: وهو من الشخصيات التاريخية المنسية والمهمّشة التي عاشت في فترة الحكم العثماني، عالم وأديب معروف بالشيخ محمد التواتي؛ من الأوائل الذين اتخذوا الشعر وسيلة لإيقاظ الوعي، واستنهاض الهمم، ومن شعره القصيدة التي حدّر فيها سكان وهران من الاحتلال الإسباني،³¹ هذه الشخصية حاضرة في هذا النصّ السردّي التاريخي؛ لتضيء جانب من هذا الصراع وما آلت إليه الأوضاع من انقسامات في الصفوف بين مؤيد للحكم التركي، ومعارض له وصل لحدّ المواجهة.

كما تكشف لنا الرواية عبر "شخصية الشيخ التواتي" بعض الملابسات، من خلال مشاركته في أحداث الحراش وسعيها لمعرفة أصول الطلبة المجندين في صفوف البايك، والتأكد من هويتهم وانتمائهم، لتفصح عن دواخلها بجديتها عن تحرير كل شبر من أرض الجزائر؛ قدم لنا السارد سلوكها بقوله: "ثم قلب عينيه الحادثين بين الطلبة المتطوعين: هذه البلاد لها تاريخ عريق ولكن الغزاة يجهلون أو ينكرونه... حافظوا على البلاد والدين الحنيف... سيأتي اليوم الذي تتولون فيه شؤون الجزائر"،³² فالسارد يلمح لوجود سر عند هذه الشخصية.

فالتأكد من هوية المتطوعين وتقليب النظر دلالة على الحذر والخوف من عيون السلطان المندسة بين المتطوعين؛ كونها تعبر عن رفضها لتولي أي أجنبي شؤون الجزائر ولم يغرها العمل في ديوان البايك عن مصلحة الوطن وعن دينها الحنيف، وعن معاناة القبائل، فشخصية الشيخ التواتي نموذج للشخصية المحبة للوطن والرافضة لتسلط الأتراك الذين عاثوا في الجزائر فسادا؛ فهي تجسد معنى الأصالة والوطنية، ومساعيها لخدمة الوطن. وتبرز حقيقة هذه الشخصية أكثر من خلال ما تقدمه شخصية محمد الشلفي (الشخصية المتخيلة) التي انتخبها الروائي وزودها بالمعلومات اللازمة (الوعي والثقافة والتاريخ والسياسة...) لتكشف عن تطور الأوضاع في البلاد، وهذا من خلال مخاطبة صديقه راشد حين قال له: "بلا ريب لم تفهم ما كان يقصده الشيخ التواتي من كلامه الذي وجهه لنا؛ ألم يقل لنا أنه سيأتي اليوم الذي يحترق فيه الجزائريون كل شبر من أرض الوطن، ثم يتسلمون مقاليد الحكم. الأتراك سيغادرون الجزائر إن آجلا أو عاجلا"،³³ فهذه الشخصية توضح رأي الشيخ التواتي في الأتراك وفي أنهم لا يختلفون كثيرا عن الإسبان؛ فقد حادوا عن الهدف الذي دخلوا الجزائر من أجله، وسيأتي الوقت الذي يعود فيه الحكم لأبناء هذا الوطن.

ومن هنا لم يكتف الروائي بالأقوال عن هذه الشخصية ليبرز موقفها، وعدم رضاها عن سياسة الأتراك في البلاد؛ بل نقل صورة من أفعالها وتعاونها مع انتفاضة درقاوة المعروفة في هذا التاريخ وبعدها وثورتها على سياسة الأتراك في البلاد؛ حيث تجلت صورة هذا التعاون في استقباله لصاحب الجبة السوداء، (الدرويش) الذي تسلل إلى مكان تواجد الطلبة في أحداث الحراش، وشكرهم على شجاعتهم في مقارعة العدو الصليبي وحثهم على الصبر، والاستعداد للحدث الأكبر وهو تحرير وهران؛ حين قال لهم لن نسكت عن احتلال وهران، وسنحارب الغزاة وإن تقاعس حكام الترك عن ذلك... سنسكن جبل المائدة حتى يغادر المحتلون أرضنا،³⁴ وهي الفكرة نفسها التي استخدمها الباي في فتح وهران.

فأفكار هذا الدرويش تفند ما شاع حول عدم مشاركة الطوائف المعارضة ومنها فرقة درقاوة في تحرير جبل المائدة، وفي مشهد مشحون بالحسرة ينقل لنا السارد تعرض الشيخ التواتي لمساءلة الآغا وزبانيته وكيف انتشر خبر اعتقاله بتهمة التواطؤ مع المتمردين بوعباية، الذي تنكر في زي درویش، فصور مشهد الشيخ التواتي المعتقل، وهو حاسر الرأس مقيد اليدين خلف حصان جموح كان يركبه أحد حراس الآغا، ثم توجه به نحو أعالي مدينة الجزائر،³⁵ وبهذا يكشف السارد عن انتشار عيون السلطان في كل مكان، ومراقبتهم لكل ما يحدث ومصير من يقف ويعارض حكمه.

وهكذا، فالروائي بنظرته هذه يقدم التاريخ كذاكرة مضادة ونموذجا أبويا يجب تقويضه والكشف في ثناياه عن المستور، والمقبور وعن هويات بادت وأقوام سادت واندثرت أو غادرت التاريخ.³⁶ وهو ما يتضح لنا في هذه الرواية من خلال بعث أحداث التاريخ واستنطاق شخصياته.

4. خاتمة:

من خلال خوضنا في موضوع "التخييل التاريخي في رواية شعلة المائدة لمحمد مفلح" توصلنا إلى النتائج الآتية:

— التخييل التاريخي في الرواية: هو ظاهرة إبداعية تنبثق عن تماهي التاريخي بالتخيلي، والذي ينطلق فيه الروائي من الحقيقة التاريخية ويعيد بناءها وفق رؤيته الخاصة.

— حاول الروائي نقل تجربته الإبداعية عبر تخيل حادثة فتح وهران؛ فوقف على أحداث وشخصيات لها وجود حقيقي عاشت تلك الفترة وتخيّل أحداث، وشخصيات أخرى.

— يكشف هذا العمل عن سعة اطلاع الروائي على أحداث هذا التاريخ (فتح وهران) من خلال التعبير عن الظروف الصعبة التي عاشها الشعب الجزائري في ظل الحكم العثماني، وما شاع عن عملية فتح وهران التي عُيِّب فيها دور الشعب الجزائري من شيوخ وطلبة الزوايا.

— حاول الروائي نقل معاناة العلماء، والمشايخ في عملهم على توعية الشعب، كما نقل وردود فعل القبائل الرعية على الحكم الاستبدادي للأتراك الذين تقاعسوا في عملية فتح وهران.

5. قائمة المصادر والمراجع:

• الكتب :

- 1_ آمنة بلعلي: سوق الرواية العربية- من المختلف إلى ما بعد المختلف- دار خيال للنشر، الجزائر 2023 م
- 2_ بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان تر: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان _بيروت، ط1، 2009م
- 3_ حلمي محمد القاعود: الرواية التاريخية في أدبنا الحديث، دار العلم والإيمان، دسوق _مصر، ط2، 2010م
- 4_ مبروك كوارى: دراسات في تحليل الخطاب السردى، دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، ط 2020 م
- 5_ محمد مفلح: شعلة المائدة - رواية، دار أيدكوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م
- 6_ محمد القاضي: الرواية والتاريخ، دراسات في التخييل المرجعي، دار المعرفة، تونس، ط1، 2008
- 7_ عبد الله إبراهيم: التخييل التاريخي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط2011، 1م
- 8_ عبد القادر فيدوح: التاريخ والسياسة في الرواية الجزائرية، دار ميم للنشر الجزائر ط1، 2022م
- 9_ عطية جمعة مصطفى: مابعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة، دار الكتب المصرية، مصر، ط 2023 م
- 10_ ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م

• المقالات :

- 11_ الحاج العيفة: دراسة مخطوطات قلعة بني راشد، المجلة المغاربية للمخطوطات، مج10، ع1، 2014 م
- 12_ غانم حميد عبودي: الرؤى والاحلام السردية، مجلة أبحاث ميسان، مج7، ع34، 2021 م

6. هوامش البحث:

- 1_ بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان تر: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان _بيروت، ط2009، 1م، ص17
- 2_ محمد القاضي: الرواية والتاريخ، دراسات في التخييل المرجعي، دار المعرفة، تونس، ط1 2008م، ص10_09
- 3_ عبد الله إبراهيم: التخييل التاريخي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط1، 2011م ص05
- 4_ المرجع نفسه، ص06
- 5_ حلمي محمد القاعود: الرواية التاريخية في أدبنا الحديث، دار العلم والإيمان، دسوق _مصر، ط2، 2010م، ص374
- 6_ المرجع نفسه، ص15
- 7_ مبروك كوارى: دراسات في تحليل الخطاب السردى، دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، ط 2020 م، ص55
- 8_ محمد القاضي: الرواية والتاريخ دراسات في التخييل المرجعي، ص12
- 9_ محمد مفلح: شعلة المائدة - رواية، دار أيدكوم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2013م، ص09

- 10 _ ينظر: غانم حميد عبودي: الرؤى والاحلام السردية ، مجلة أبحاث ميسان، عدد 7/ 2021 ص 196
- 11 _ محمد مفلح: شعلة المايادة ، ص 57
- 12 _ المصدر نفسه، ص 60
- 13 _ المصدر نفسه، ص 81
- 14 _ ينظر: المصدر نفسه، ص 83
- 15 _ ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م ص 74
- 16 _ ينظر: عطية جمعة مصطفى: ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة ، دار الكتب المصرية، مصر، ط 2023 م ص 36
- 17 _ ينظر: عبد القادر فيدوح : التاريخ والسياسة في الرواية الجزائرية، دار ميم للنشر الجزائر ط1، 2022م، ص 143
- 18 _ محمد مفلح: شعلة المايادة ، ص 75
- 19 _ الحاج العيفة: دراسة مخطوطات قلعة بني راشد، المجلة المغاربية للمخطوطات، عدد 2013/4م، ص 254
- 20 _ محمد مفلح: شعلة المايادة، ص 112
- 21 _ المصدر نفسه، ص 196
- 22 _ المصدر نفسه، ص 203
- 23 _ المصدر نفسه، ص 208
- 24 _ المصدر نفسه، ص 211
- 25 _ ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص 88
- 26 _ الحاج العيفة : دراسة مخطوطات قلعة بني راشد، ص 254
- 27 _ محمد مفلح: شعلة المايادة، ص 91_ 92
- 28 _ المصدر نفسه، ص 32
- 29 _ المصدر نفسه، ص 160
- 30 _ المصدر نفسه، ص 206
- 31 _ ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص 18
- 32 _ محمد مفلح: شعلة المايادة، ص 70
- 33 _ المصدر نفسه، ص 76
- 34 _ المصدر نفسه، ص 84
- 35 _ المصدر نفسه، ص 86
- 36 _ آمنة بلعلي: سوق الرواية العربية- من المختلف إلى ما بعد المختلف - دار خيال للنشر، الجزائر 2023 م ص 200